نفسه دون منتجات «التناسل» ، ـ دونها ودون الحالة النفسية المعقدة والمتوترة التي تلاصقها مباشرة» (انتبهوا الى هذا الاسلوب الحالة النفسية المعقدة «تلاصق» منتجات التناسل ! ولكن حقاً هذا شيء رائع !) وهكذا فان مؤسسة الوراثة بناء فوقي يرتفع فوق العلاقات العائلية والجنسية ، اذ ان الوراثة غير معقولة دون التناسل ! ولكن هذا اكتشاف حقيقي اشبه باكتشاف اميركا ! حتى الآن ، كان الجميع يعتقدون ان التناسل اعجز عن تفسير مؤسسة الوراثة عجز ضرورة الغذاء عن تفسير مؤسسة الملكية وحتى الآن ، كان الجميع يعتقدون انه ، مثلا اذا لم يكن بالامكان ، في روسيا ، في عهد ازدهار نظام الاراضي المقطوعة (١٢)، ان تنتقل الارض بالوراثة (اذ لم تكن تعتبر ملكية الا بصورة مشروطة) ، فانما يجب البحث عن تفسير هذا الامر في خصائص التنظيم الاجتماعي في ذلك الزمن وان السيد ميخايلوفسكي ، على ما يبدو ، يعتقد ان هذا يعود بكل بساطة الى ان العنصر النفساني الذي كان يلاصق منتجات تناسل الملاك العقاري آنذاك لم يكن معقدا بما فيه الكفاية

يمكننا القول ونحن نحور حكمة معروفة حك «صديق الشعب» تر البرجوازي وبالفعل ، ما عساها ان تعني اقوال السيد ميخايلوفسكي حول الترابط بين مؤسسة الوراثة وتربية الاطفال ، ونفسانية التناسل ، الخ ، ان لم تكن تعني ان مؤسسة الوراثة خالدة وضرورية ومقدسة كما هي عليه تربية الاطفال ! صحيح ان السيد ميخايلوفسكي قد حاول ان يؤمن لنفسه منفذاً ، باعلانه ان «مؤسسة الوراثة مشروطة الى حد ما بواقع المنافسة الاقتصادية» ولكن هذه ليست سوى محاولة للتهرب من المسألة دون الاجابة عليها جواباً واضحاً ، محاولة تمت بوسائل هزيلة . فكيف يمكننا ان نأخذ هذه الملاحظة بعين الاعتبار ،

حين لا يقال لنا ابداً الى «اي حد» بالضبط تتعلق الوراثة بالمنافسة ؟ وحين لا يوضح لنا ابداً قوام هذه الصلة بين المنافسة ومؤسسة الوراثة ؟ وفي الواقع ، تفترض مؤسسة الوراثة وجود الملكية الخاصة ، والملكية الخاصة لا تنبثق الا مع ظهور التبادل ، وهي قائمة على التخصص الناشى في العمل الاجتماعي وعلى التنازل عن المنتجات في السوق فطالما كان ، مثلا ، جميع افراد المشاعة الهندية البدائية يصنعون معاً جميع المنتجات التي يحتاجونها ، فقد ظلت الملكية الخاصة امراً مستحيلا ولكن ما ان ظهر تقسيم العمل في المشاعة واخذ كل عضو من اعضائها ينتج على حدة منتوجاً معيناً لبيعه في السوق ، حتى وجد هذا الانفصال المادي بين منتجي البضائع تعبيراً عنه في مؤسسة الملكية الخاصة ان الملكية الخاصة والوراثة كلاهما مفهوم من النظم الاجتماعية التي تكونت فيها عائلات منفصلة ، قليلة الاعضاء (احادية الزواج) وبدأ التبادل يتطور فيها ان مثال السيد ميخايلوفسكي يثبت تماماً عكس ما اراد اثباته

كذلك نجد عند السيد ميخايلوفسكي اشارة واقعية اخرى ، هي هذه المرة ايضاً ، درة في نوعها ! فهو يقول مواصلا اصلاح المادية «اما فيما يخص الروابط العشائرية ، فقد تضاءلت في تاريخ الشعوب المتمدنة ، جزئياً وحقاً تحت اشعة تاثير اشكال الانتاج (حيلة اخرى ، اجلى واوضح اية اشكال انتاج على وجه الضبط ؟ تعبير اجوف لا معنى له !) ، وجزئياً انحلت في استمرارها وتعميمها هي بالذات ، اي في الروابط القومية» وهكذا ، فان الروابط القومية هي استمرار وتعميم الروابط العشائرية ! يمكن الظن ان السيد ميخايلوفسكي يستمد افكاره عن تاريخ المجتمع من قصص الاطفال التي يلقنونها لتلامذة المدارس . ان تاريخ المجتمع ، حسب هذا المذهب من الافكار المطروقة ، انما يكمن في انه وجدت

اولا العائلة ، هذه الخلية لكل مجتمع * ـ ثم كبرت العائلة ـ كما يزعم هذا المذهب ـ واصبحت قبيلة ، والقبيلة ، بدورها ، تعاظمت واصبحت دولة . واذا كان السيد ميخايلوفسكي يكرر هذه التفاهات الصبيانية برصانة وجد ، فان هذا يدل بكل بساطة ، فيما يدل ، على انه ليس لديه اية فكرة حتى عن سير التاريخ الروسي فاذا كان يمكن التحدث عن الحياة العشائرية في روسيا القديمة ، فلا سبيل الى الريب في ان هذه الروابط العشائرية لم يبق لها وجود في القرون الوسطى ، في عهد مملكة موسكوفيا ، اي ان الدولة كانت تقوم على اتحادات محلية ليست عشائرية اطلاقاً كان الملاكون العقاريون والاديرة يقبلون الفلاحين القادمين من مختلف المناطق ، وكانت الجماعات التي تتشكل على هذا النحو جمعيات مكانية صرفاً ومع ذلك ، كان يصعب الحديث عن الروابط القومية بمعنى الكلمة الاصلي في ذلك العهد كانت الدولة مقسمة الى «اقاليم» متمايزة منفصلة ، وحتى غالباً الى امارات تحتفظ بآثار حية من استقلالها الذاتي القديم ، وبخصائص ادارية ، واحياناً بقواتها المسلحة الخاصة (كان كبار النبلاء المحليين يسيرون الى الحرب على رأس افواجهم الخاصة) ، وبحدود جمركية خاصة ، الخ والمرحلة الجديدة من تاريخ روسيا (منذ القرن السابع عشر تقريباً) تتميز وحدها حقاً باندماج جميع هذه المناطق والاقاليم والامارات اندماجاً فعلياً في كل واحد وهذا الاندماج لا ينجم ، ايها السيد ميخايلوفسكي المحترم جداً ، عن روابط عشائرية ولا حتى عن

---

* فكرة برجوازية صرف ان العائلات المبعثرة والصغيرة لم تصبح مهيمنة الا في ظل النظام البرجوازي ؛ ولم يكن لها اطلاقا اي وجود في ازمنة ما قبل التاريخ ان ابرز ما يميز البرجوازي ، انه ينسب سمات النظام الحالي الى جميع الازمنة وجميع الشعوب .

استمرارها وتعميمها ؛ انما ينجم عن تنامي التبادل بين المناطق ، وعن تطور مبادلات البضائع تدريجياً ، وعن تمركز الاسواق المحلية الصغيرة في سوق واحدة لعموم روسيا وبما ان قادة هذا المجرى واسياده كانوا الرأسماليين التجار ، فان نشوء هذه الروابط القومية لم يكن سوى نشوء الروابط البرجوازية وهكذا فان السيد ميخايلوفسكي لم يفعل ، باشارتيه الواقعيتين ، غير ان ضرب نفسه بنفسه ولم يعطنا سوى امثلة عن تفاهات برجوازية ـ **تفاهات** ، لانه فسر مؤسسة الوراثة بالتناسل ونفسيته ، وفسر القومية بالروابط العشائرية ؛ **برجوازية** ، لانه اعتبر المفاهيم والابنية الفوقية لتشكيلة اجتماعية محددة تاريخياً (قائمة على التبادل) مفاهيم عامة وخالدة كما هي عليه تربية الاطفال والصلات الجنسية «الصرف».

ومما له دلالته القصوى ان فيلسوفنا الذاتي ينزلق ويتورط في الوحل ما ان يحاول الانتقال من الجمل الجوفاء الى الاشارات الملموسة الواقعية . ويبدو انه يشعر بكامل الارتياح في هذا الموقع غير النظيف كثيراً فهو ، في موضعه هذا ، ينظف ريشه ، ناشراً حوله رشاشاً من الوحل فهو يريد ، مثلا ، دحض الموضوعة القائلة ان التاريخ سلسلة من وقائع النضال الطبقي فيعلن بمظهر عميق التفكير ان هذا «تطرف» ، ويقول «ان جمعية الشغيلة العالمية التي اسسها ماركس لخوض النضال الطبقي ، لم تمنع العمال الفرنسيين والالمان من التذابح ومن تخريب بعضهم بعضاً» ، مما يثبت ، على حد زعمه ، ان المادية لم تدقق حساباتها «مع شيطان الاثرة القومية والحقد القومي» ان هذا الزعم يكشف عند الناقد عن عدم فهم فظ جداً لواقع ان مصالح البرجوازية التجارية والصناعية ، مصالحها الفعلية جداً ، تشكل الاساس الرئيسي لهذا الحقد ، وان التحدث عن الشعور القومي بوصفه عاملا مستقلا ليس الا تمويهاً لجوهر المسألة . ناهيك عن انه سبق لنا ورأينا

اية فكرة عميقة يملكها فيلسوفنا عن القومية فان السيد ميخايلوفسكي لا يعرف كيف ينظر الى الاممية. (١٣) الا بسخرية اشبه تماماً بسخرية بورينين (١٤) «ان ماركس يرأس جمعية الشغيلة العالمية التي تفسخت حقاً ، ولكنه لا بد لها ان تنبعث» . وبالطبع ، اذا نظر المرء nec plus ultra * للتضامن الاممى في نظام التبادل «العادل» ، كما يرسمه محرر الحياة الداخلية في العدد ٢ من «روسكويه بوغاتستفو» بسطحية التافه الضيق الافق ، واذا لم يدرك ان التبادل ، سواء أعادلا كان ام غير عادل ، يفترض ويحتوي دائماً سيطرة البرجوازية وانه يستحيل وقف الاصطدامات الدولية اذا لم يقض على التنظيم الاقتصادي القائم على التبادل ، ــ فمن المفهوم آنذاك هذا السخر من الاممية الذي يكتفي به هذا المرء ومن المفهوم آنذاك انه لا يكون في مقدور السيد ميخايلوفسكي استيعاب هذه الحقيقة البسيطة وهي انه ليس ثمة وسيلة لمكافحة الحقد القومي الا تلك الوسيلة التي تتقوم في تنظيم ورص طبقة المظلومين من اجل النضال ضد طبقة الظالمين في كل بلد على حدة ، في توحيد هذه المنظمات العمالية الوطنية في جيش عمالي عالمي واحد بغية النضال ضد الرأسمال العالمي اما فيما يخص القول بان الاممية لم تمنع العمال من التذابح ، فحسبنا ان نذكر السيد ميخايلوفسكي باحداث الكومونة (١٥) التي بينت حقيقة موقف البروليتاريا المنظمة ازاء الطبقات الحاكمة التي كانت تخوض الحرب

ان ما ينفر بخاصة في كل هذا النقاش الذي يشنه السيد ميخايلوفسكي ، انما هو اساليبه فاذا كان غير راض عن تكتيك الاممية ، اذا كان لا يشاطر الافكار التي ينتظم العمال الاوروبيون

---

* الحد الاقصى . **الناشر** .

من اجلها ، فلينتقد هذه الافكار على الاقل انتقاداً صريحاً ومباشراً ، وليعرض افكاره حول تكتيك اصوب ، حول نظرات اصح وبدلا من ذلك ، لا نجد عنده حتى اي اعتراض جلي وواضح ؛ وليس عنده غير سخريات خرقاء منثورة هنا وهناك في فيض من الجمل فهل يمكن ان نسمي هذا الا باسم الوحل ؟ خصوصاً اذا اخذنا بالحسبان ان الدفاع عن افكار الاممية وتكتيكها غير مسموح به شرعاً في روسيا ؟ ويعمد السيد ميخايلوفسكي الى الاساليب نفسها حين يجادل الماركسيين الروس فهو لا يجهد نفسه بان يعرض هذه او تلك من موضوعاتهم بوجدان ودقة ، لكي يخضعها لانتقاد مباشر ودقيق ، بل يفضل التشبث باجزاء من الحجج الماركسية سمعها من باب الصدفة ، وتشويهها احكموا بانفسكم «كان ماركس ذكياً جداً وواسع الاطلاع جداً حتى يظن انه هو الذي اكتشف فكرة الضرورة التاريخية والمنطق الطبيعي للظواهر الاجتماعية في الدرجات الدنيا (من السلم الماركسي) * يجهلون هذا الامر (وهو ان «فكرة الضرورة التاريخية ليست شيئاً جديداً اخترعه او اكتشفه ماركس ، بل انما هي حقيقة ثابتة منذ زمن بعيد») او انهم على كل حال ، لا يملكون سوى فكرة غامضة عما انفق من عزيمة وقوة ذهنية منذ قرون من اجل اثبات هذه الحقيقة»

---

* نلاحظ بصدد هذا التعبير الذي لا معنى له ، ان السيد ميخايلوفسكي يضع ماركس على حدة (لانه ذكي جداً وواسع الاطلاع جداً ـ حتى يتمكن ناقدنا من انتقاد هذه او تلك من موضوعاته انتقاداً صريحا ومباشراً) ، ثم يضع انجلس («عقل اقل ابداعا») ، ثم اناساً على درجات متفاوتة من الاستقلال ، مثل كاوتسكي ، واخيراً ، سائر الماركسيين طيب ، هل يمكن لمثل هذا التصنيف ان يتسم باية اهمية كبيرة ؟ اذا كان الناقد غير راض عن مبسطي ماركس ، فما الذي يمنعه من اصلاحهم حسب آراء ماركس ؟ ولكنه لم يفعل اي شيء من هذا القبيل انما اراد ، على ما يبدو ، ان يتظاهر بالذكاء فاذا النتيجة ابتذال وتفاهة .

ومن الواضح ان مثل هذه المزاعم قد تؤثر حقاً في جمهور يسمع بالماركسية للمرة الاولى ، ويستطيع الناقد ، بالنسبة لهذا الجمهور ، ان يبلغ غايته بكل يسر التشويه والتلاعب و«النصر» (هكذا ، كما يقال ، يتحدث محررو «روسكويه بوغاتستفو» عن مقالات السيد ميخايلوفسكي) ان كل من يلـــم بماركس ولو الماماً قليلا ، سيرى فوراً ما تنطوي عليه هذه الاساليب من زور ووهن يمكن للمرء ان لا يوافق مع ماركس ، ولكنه لا يمكن الجدال في ان ماركس قد صاغ بقدر كبير من الدقة نظرات كانت تشكل **شيئاً جديداً** بالنسبة لنظرات الاشتراكيين الذين سبقوه اما هذا الشيء الجديد فقوامـــه ان الاشتراكيين السابقين كانوا يعتقدون انه يكفيهم لدعم مفاهيمهم ان يبينوا اضطهاد الجماهير في ظل النظام القائم ، ان يبينوا تفوق نظام يتلقى فيه كل انسان ما انتجه بنفسه ، ان يبينوا ان هذا النظام المثالي مطابق «للطبيعة البشرية» ، للمفهوم عن الحياة المعقولة والاخلاقية ، الخ ولكن ماركس اعتبر انه من غير الممكن الاكتفاء بمثل هذه الاشتراكية فلم يقتصر على وصف النظام القائم ، وابداء الرأي فيه ، وشجبه ؛ انما اعطى عنه تفسيراً علمياً اذ نسب هذا النظام القائم ، المختلف في شتى البلدان الاوروبية وغير الاوروبية ، الى اساس مشترك التشكيلة الاجتماعية الرأسمالية التي اخضع قوانين عملها وتطورها لتحليل موضوعي (لقد بيـن **ضرورة** الاستثمار في ظل هذا النظام) كذلك لم يعتبر ماركس ان من الممكن الاكتفاء بالزعم القائل بان النظام الاشتراكي وحده مطابق للطبيعة البشرية ،ـ كما كان يعلن كبار الاشتراكيين الطوباويين وخلفاؤهم المساكين ، علماء الاجتماع الذاتيون وبنفس هذا التحليل **الموضوعي** للنظـــام الرأسمالي ، برهن ماركس **ضرورة** تحول هذا النظام الى نظام اشتراكي (اما كيف برهن مـــاركس ذلك وكيف اعترض السيد ميخايلوفسكـي

عليه ـ فذلك ما سنتناوله فيمـــا بعد) .ـ هذا هو مصدر تلك الاستشهادات بالضرورة ، التي غالباً ما تتردد عند الماركسيين والتشويه الذي جاء به السيد ميخايلوفسكي في هذه المسألة واضح كل الوضوح فقد ترك جانبـاً كل محتوى النظرية الفعلي ، كل جوهرها ، وعرض الامور كان كل النظريـــة تنحصر في كلمـــة «الضرورة» وحدها («لا يكفي الاستشهاد بها وحدها في الشؤون العملية المعقدة») ، كان **برهان** هذه النظرية قائم في ان الضرورة التاريخية هكذا تتطلب وبتعبير آخر ، لم يقل شيئاً عن محتوى النظرية ، بل تشبث فقط باسمها ، واذا به يعود ويتلاعب بهذه «الحلقة المسطحة بكل بساطة» التي سعى جهده ان يحصر مذهب ماركس في اطارها . وطبيعي اننا لن نتبع هذا التلاعب ، لأننا اطلعنا كفاية عليه فلندعه يتقلب لما فيه تسلية وفرح السيد بورينين (الذي لم يطر السيد ميخايلوفسكي عبثاً في «نوفويه فريميا» (١٦)) ، لندعه ، بعد تحية اجلال لماركس ، ينبح خلسة ضده «ان نقاشه مع الطوباويين والمثاليين ، كما ترون ، وحيد الطرف اطلاقاً » اي حتى دون تكرار الماركسيين حجج هذا النقاش اننا لا نستطيـــع ان نسمي هذه الحملات الا نباحـــاً ، لأنه لم يؤت اطلاقاً **باي** اعتراض ملموس ، معين ، يمكن التثبت من صحته ، ضد هذا النقاش ، بحيث انه يستحيل علينـــا حقاً الرد على هذا النباح ، رغم كل السرور الذي سنشعر به من النقاش حول هذا الموضوع ـ اذ اننا نعتبره غاية في الاهمية بالنسبة لحل القضايا الاشتراكية الروسية ، ولا يبقى لنا الا ان نهز اكتافنا قائلين :

لا ريب ان هذا الكليب قوي حقاً
اذا كان ينبح على الفيل ! (١٧)

ثم ان الرأي الذي يسوقه السيد ميخايلوفسكي فيما بعد حول الضرورة التاريخية ليس خال من الطرافة ، اذ انه يكشف لنا ـ ولو جزئياً ـ الجعبة الفكرية الفعلية لدى «عالمنا الاجتماعي المعروف» (وهو اللقب الذي يتمتع به السيد ميخايلوفسكي على قدم المساواة مع السيد ف . ف ، بين ممثلي «مجتمعنا المثقف» الليبيراليين) وهو يتناول «نزاعاً بين فكرة الضرورة التاريخية واهمية النشاط الفردي» انهم يخطئون رجالات المجتمع الذين يعتبرون انفسهم فاعلين ـ بينا هم «مفعولون» ، وليسوا سوى «دمى تحركها القوانين الملازمة للضرورة التاريخية من مكان سري مجهول» ـ هذا هو ، كما يقول ، الاستنتاج الناجم عن هذه الفكرة التي يصفها ، لهذا السبب ، بانها «عقيمة» و«غامضة» قد لا يفهم بعض القراء من اين استمد السيد ميخايلوفسكي كل هذه الحماقات ـ هذه الدمى ، الخ . . والحقيقة ان فكرة النزاع بين الحتمية والاخلاق ، بين الضرورة التاريخية ودور الفرد هي احدى الافكار المحبوبة عند فيلسوفنا الذاتي وقد سوّد بهذا الصدد تلالا من الورق ، واتحفنا بكمية هائلة من الحماقات العاطفية والتافهة من اجل حل هذا النزاع في صالح الاخلاق ودور الفرد اما في الواقع ، فليس هناك اي نزاع فهذا النزاع انما اخترعه السيد ميخايلوفسكي الذي يخاف (وليس عبثاً) ان تأتي الحتمية وتحرم هذه الاخلاق البرجوازية الصغيرة العزيزة جداً عليه ، من اساسها ان فكرة الحتمية التي تقول بحتمية افعال الانسان وتنبذ الخرافة الخرقاء القائلة بحرية الارادة ، لا تلغي اطلاقاً لا عقل الانسان ، ولا ضميره ، ولا تقدير اعماله بل بالعكس تماماً فان وجهة النظر الحتمية وحدها تتيح اعطاء تقدير دقيق وصحيح ، بدلا من القاء كل شيء على عاتق حرية الارادة كذلك فكرة الضرورة التاريخية لا تقوض ابداً دور الفرد في التاريخ : فالتاريخ بأسره انما يتألف

بالضبط من اعمال افراد ، هم بلا ريب فاعلون اما السؤال الذي ينهض فعلا عند تقدير النشاط العام الذي يبذله فرد من الافراد ، فهو التالي اية ظروف تستطيع ان تؤمن نجاح هذا النشاط ؟ اين الضمانة في ان لا يبقى هذا النشاط عملا منفرداً ، غارقاً في بحر من الاعمال المضادة ؟ وفي هذا ايضا يكمن فحوى ذلك السؤال الذي يجيب عنه الاشتراكيون-الديموقراطيون وغيرهم من الاشتراكيين الروس اجوبة مختلفة كيف يجب على النشاط الهادف الى تحقيق النظام الاشتراكي ان يجتذب الجماهير لكي يعطي نتائج جدّية ؟ بديهي ان الجواب عن هذا السؤال يتوقف مباشرة على مفهوم المجيب عن تكتل القوى الاجتماعية في روسيا ، عن نضال الطبقات الذي يتكون منه الواقع الروسي وهنا ايضاً لا يفعل السيد ميخايلوفسكي غير ان يدور ويلف حول السؤال ، دون ان يحاول حتى طرحه بدقة ، وحله بطريقة ما ان الحل الاشتراكي-الديموقراطي للقضية ينطلق ، كما هو معروف ، من وجهة النظر التالية وهي ان النظام الاقتصادي الروسي انما هو المجتمع البرجوازي ، وانه لا يوجد ، للخروج منه ، سوى مخرج واحد وحيد ينجم بالضرورة عن طبيعة النظام البرجوازي نفسها ، اي نضال البروليتاريا الطبقي ضد البرجوازية وبديهي انه كان يجب توجيه انتقاد جدّي ، اما ضد هذا الرأي القائل ان نظامنا نظام برجوازي ، واما ضد تصور جوهر هذا النظام وقوانين تطوره ، ــ ولكن السيد ميخايلوفسكي لا يفكر اطلاقاً في معالجة القضايا الجديدة ، بل يفضل التخلص منها بجمل جوفاء كالجملة التالية الضرورة جملة عامة جداً ، الخ ان كل فكرة ستكون ، بالطبع ، ايها السيد ميخايلوفسكي ، جملة عامة جداً اذا بدأت بافراغ محتواها ، كما تفرغ احشاء سمكة مقددة ، لكى تهتم فيما بعد بالقشرة المتبقية ! ان هذه القشرة التي تغطي قضايا العصر الجدية حقاً ،

الملحـــة ، هي الموضـــوع المفضل عند السيد ميخايلوفسكي فباعتزاز خاص يشير ، مثلاً الى ان «المادية الاقتصادية تتجاهل او تفسر خطأ قضية الابطال والجمهور» اليكم اذن ان مسألة كيفية تكوّن الوضع الراهن الروسي ــ من نضال اية طبقات وعلى اي اساس ، ــ هي بلا ريب ، مسألة عامة جداً بالنسبة للسيد ميخايلوفسكي ؛ ولذا فهو يلزم الصمت حولها وبالمقابل ، ان مسألة معرفة اية علاقات تقوم بين الابطال والجمهور ــ سيان أكان الجمهور من العمـــال ام من الفلاحين ، ام من الصناعيين ، ام من الملاكين العقاريين ، ــ ان هذه المسألة تهمه جداً قد تكون هاتان المسألتان «طريفتين» ، ولكن اذا لام المرء الماديين لأنهم يوجهون كل جهودهم لحل قضايا تتعلق مباشرة بتحرير الطبقة الكادحة ، فهذا يعني ان هذا المرء ليس الا هاو للعلـــم التافه الضيق الافق لا غير ويعرض لنـا السيد ميخايلوفسكي ، ختامـاً «لانتقاده» (؟) المادية ، محاولـــة اخرى لتزييف الوقائع وتزويراً آخر فبعد ان ابدى السيد ميخايلوفسكي شكوكـــه حول صحة رأي انجلس بأن الاقتصاديين الرسميين (١٨) قد لزموا الصمت حول «رأس المال» (شكوكا دعمها بهذه الحجة المضحكـــة وهي ان الجامعات عديدة في المانيـــا !) ، قال «ان ماركس لم يقصد اطلاقاً هذه الحلقة بالضبط من القراء (العمال) ، وكان يتوقع شيئاً ما ايضاً من رجال العلم» هذا غير صحيح تماماً فان ماركس كان يدرك كل الادراك الى اي حد ضئيل يمكن الاعتماد على عدم تحيز ممثلي العلم البرجوازيين وانتقادهم العلمي وقد اعرب عن وجهة النظر هذه بكل وضوح في التنبيه الاخير الوارد في الطبعة الثانية من «رأس المال» واليكم ما كتبه في هذا الصدد «ان خير مكافأة لعملي هو الفهم والاستحسان اللذان قوبل بهما «رأس المال» بسرعة في الاوساط الواسعة من الطبقة العاملة الالمانية . فان

السيد ماير ، الذي يتمسك في القضايا الاقتصادية بوجهة نظر برجوازية ، قد اصدر ابان الحرب الفرنسية البروسية (١٩) كراساً اعرب فيه عن هذه الفكرة الصحيحة كلياً وهي ان القدرة البارزة على التفكير النظري (der grosse theoretische Sinn) التي تعتبر سمة وراثية من سمات الالمان ، قد ضاعت تماماً في الطبقات المسماة بالطبقات المتعلمة ، ولكنها تنبعث من جديد عند الالمان في الطبقة العاملة »

والتزوير يتعلق هذه المرة ايضاً بالمادية وهو تماماً من صنف النموذج الاول « ان النظرية (المادية) لم تلق قط اي تبرير واثبات علميين » هذه هي الموضوعة وفيما يلي البرهان « ان بعض الصفحات الحسنة ذات المحتوى التاريخي عند انجلس وكاوتسكي وبعض الآخرين (كما فى مؤلف بلوس السامي التقدير ايضاً) انما يمكن لها ان تستغني عن مصطلح المادية الاقتصادية ، اذ (لاحظوا هذه الـ« اذ » !) انه يؤخذ فيها فعلا (كذا !) بعين الاعتبار الحياة الاجتماعية بمجملها وان كانت النغمة الاقتصادية تتغلب في هذا التوافق » الخلاصة « ان المادية الاقتصادية لم تجد لها مبرراً فى العلم »

هذه الطريقة معروفة ! فلكي يبرهن السيد ميخايلوفسكي على وهن النظرية ، يشوهها اولا اذ ينسب اليها نية خرقاء ، نية عدم اخذ مجمل الحياة الاجتماعية بعين الاعتبار ، ـ في حين ان الماديين (الماركسيين) قد كانوا ، على العكس ، اوائل الاشتراكيين الذين تقدموا بمسألة ضرورة تحليل الحياة الاجتماعية بجميع مظاهرها ، لا فقط مظهرها الاقتصادي * ، ـ ثم يؤكد ان الماديين قد

---

* وهذا ما وجد عنه تعبيراً واضحاً تماماً في « رأس المال » وفي تكتيك الاشتراكيين-الديموقراطيين ، على نقيض الاشتراكيين السابقين فان ماركس قد تطلب صراحة عدم الاقتصار على المظهر الاقتصادي . ففي عام

«احسنوا» «فعلا» تفسير مجمل الحياة الاجتماعيـــة بالاقتصاد (وهو قول يدحض قائلـــه على ما يبدو) ، واخيراً ، يتوصل الى النتيجة التالية وهي ان المادية «لم تجد لهـــا مبرراً» غير ان تزويراتك ، ايها السيد ميخايلوفسكي ، قد وجدت لها كل المبررات !

هذا كل مـــا يعرضـــه السيد ميخايلوفسكي «لدحض» المادية واكرر ان ليس فيه اي انتقاد ، انه محض ثرثرة باطلة ودعية اسألوا أياً كان ما هي الاعتراضات التي ساقهـــا السيد ميخايلوفسكي ضد الرأي القائل ان علاقات الانتاج هي التي تكمن في اساس جميع العلاقات الاخرى ؟ بم دحض صحة المفهوم الذي وضعه ماركس بمساعدة الطريقة المادية عن التشكيلات الاجتماعية وتطور هذه التشكيلات تطوراً طبيعياً تاريخياً ؟ كيف برهن ان

١٨٤٣ كتب الى روغه راسماً الخطوط الكبرى لبرنامج مجلة يعتزم اصدارها ٢) : «ان المبدأ الاشتراكي ، بمجمله ، ليس ايضاً سوى مظهر واحد اما نحن ، فيجب علينا ان نعير نفس الاهتمام للمظهر الآخر ايضاً ، اي لوجود الانسان نظرياً ؛ وبالتالي يجب علينا ان نجعل من الدين ، والعلم ، الخ ، موضوع انتقادنا وكما ان **الدين** هو فهرست المعارك النظريـــة التي خاضتها الانسانية ، كذلك **الدولة السياسية** هي فهرست معاركها العملية وهكذا ، فان الدولة السياسية تعبر في حدود اشكالها sub specie rei publicae (من الزاوية السياسية) عن جميع المعارك ، والحاجات والمصالح الاجتماعية . ولذا ، اذا وضعنا موضع الانتقاد مسألة سياسية خاصة جداً ، مثلا ، الفرق بين نظام الفئات المغلقة والنظام التمثيلي ، ـ فاننا لا ننزل اطلاقـــا من hauteur des principes (من اعالي المبادئ **الناشر** .) ، لأن هذه المسألة تعبر ، بلغة سياسية ، عن الفرق بين سيطرة الانسان وسيطرة الملكيـــة الخاصة ولذا ، لا يستطيع الناقد وحسب بل يجب عليه ان يتناول هذه المسائل السياسية (التي يعتبرهـــا الاشتراكي المتشدد غير جديرة باي انتباه)» .

التفسير المادي لمختلف القضايا التاريخية ، ولو على الاقل ذلك التفسير الذي اعطاه الكتاب الذين اورد اسماءهم ، تفسير خاطئ ؟ ـ لا بدّ ان يكون جوابه كما يلي انه لم يأت باي اعتراض ، ولم يدحض شيئاً ، ولم يشر الى اي خطأ ولم يفعل غير ان دار ولف حول الموضوع ، ساعياً الى تمويه جوهر المسألة بجمل طنانة ، بحيل تافهة يخترعها للمناسبة .

وانه لمن الصعب ان ننتظر شيئاً جديا من مثل هذا الناقد ، حين يواصل في العدد ٢ من «روسكويـــه بوغاتستفو» دحض الماركسية والفرق كله هو ان مقدرته على اختراع الثزويرات قد نفدت وانه يعمد الى تزويرات من اختراع الآخرين

في البداية ، يتكلم بفخامة عن «تعقد» الحياة الاجتماعية فحتى الغلفانية ترتبط عنده بالمادية الاقتصادية ايضـــاً ، اذ ان تجارب غلفاني «أثرت» في هيغل ايضاً كلام ظريف ! وبمثـــل هذا النجاح يمكن القول بان ثمة صلات بين السيد ميخايلوفسكي وامبراطور الصين ! وما عسانا ان نستنتج غير ان هناك اناساً يطيبُ لهم التشدق بحماقات ؟ !

ويستطرد السيد ميخايلوفسكـــي قائلا «ان جوهر مجرى الامور التاريخي هو بوجه عام امر لا يمكن ادراكه ، ولم يدركه كذلك مذهب المادية الاقتصادية رغم انه يرتكز ، كما يبدو ، على دعامتين على اكتشاف الاهميـــة الحاسمة لاشكال الانتـاج والتبادل ، وعلى ما للمجرى الديالكتيكي من طابع ثابت لا يمكن نكرانه»

وهكذا ، يعتمد الماديون على مـــا للمجرى الديالكتيكي من «طابع ثابت لا يمكن نكرانه» ! اي بتعبير آخر ، انهم يبنـــون نظرياتهم في علم الاجتماع على ثلاثيات (٢١) هيغل واننا لنرى هنا التهمة المألوفة ، اتهام الماركسية بالديالكتيك الهيغلي ، وهي

تهمة ، على ما يبدو ، لاكها نقاد ماركس البرجوازيون كفاية فان هؤلاء السادة ، لعجزهم عن الاتيان باي اعتراض حول جوهر المذهب بالذات ، قد تشبثوا بالطريقة التي كان يعبر بها ماركس ، وهاجموا اصل النظرية ، ظانين انهم بذلك انما ينسفون جوهرها بالذات ولا يجد السيد ميخايلوفسكي اي حرج في اللجوء الى مثل هذه الاساليب وقد اتخذ فصلا من مؤلف انجلس ضد دوهرينغ ذريعة له (٢٢) فان انجلس ، في اعتراضه على دوهرينغ الذي هاجم ديالكتيك ماركس ، قد قال بان ماركس لم يفكر قط في «اثبات» اي شيء بثلاثيات هيغل ، وانه لم يفعل غير ان درس وحلل المجرى الفعلي ، وان المقياس الوحيد لصحة نظرية ما ، برأي ماركس ، انما هو مطابقتها مع الواقع واذا حدث احياناً ان تطابق تطور ظاهرة اجتماعية ما مع مخطط هيغل موضوعة ـ نفي ـ نفي النفي ، ـ فلا غرابة في الامر اطلاقاً ، اذ ان هذا الامر ، بوجه عام ، ليس بنادر في الطبيعة ويورد انجلس امثلة مستقاة من المجال الطبيعي التاريخي (تطور حبة من الشعير) ومن الميدان الاجتماعي ، من نوع الامثال التالية في البدء ، كانت الشيوعية البدائية ، ثم الملكية الخاصة ، وفيما بعد ، اضفاء صفة اجتماعية رأسمالية على العمل ، او : في البدء ، المادية البدائية ، ثم المثالية ، واخيراً المادية العلمية ، الخ وبديهي للجميع ان مركز الثقل في براهين انجلس ، هو انه يجب على الماديين ان يصوروا المجرى التاريخي الحقيقي بدقة ووضوح ؛ وان الاصرار على الديالكتيك ، واختيار الامثلة التي تبرهن صحة الثلاثية ، ليس الا من بقايا الهيغلية التي انبثقت منها الاشتراكية العلمية ، من بقايا طريقتها في التعبير وبالفعل ، حين يعلن المرء قطعاً ان «البرهان» على شيء ما بواسطة ثلاثيات امر اخرق ، وان احداً لم يفكر بذلك اطلاقاً ، فما عسى ان يكون معنى الامثلة عن العمليات

«الديالكتيكيـــة» ؟ أليس من الواضح ان هذا اشارة الى اصل المذهب ، لا اكثر ؟ وهذا ما يدركه السيد ميخايلوفسكي نفسه حين يقول انه لا يجوز تعييب نظرية بسبب من اصلها ولكنه كان يجب ، بالطبع ، لرؤية اكثر من اصل النظرية في شروحات انجلس ، اثبات ان الماديين قد حلوا على الاقل **قضية** تاريخية واحدة لا على اساس وقائع مناسبة ، بل بواسطة ثلاثيات فهل حاول السيد ميخايلوفسكي ان يثبت ذلك ؟ ابداً بل بالعكس فقد اضطر الى الاعتراف بان «ماركس قد ملأ المخطط الديالكتيكي الفارغ بمحتوى من الوقائع الملموسة بحيث يمكن نزعه من هذا المحتوى كما ينزع غطاء اناء ، دون ان يتغير شيء» (وسنتناول فيما بعد التحفظ الذي يبديه السيد ميخايلوفسكي هنا بصدد المستقبل) فاذا كان الامر كذلك ، فلماذا يبدي السيد ميخايلوفسكي مثل هذه الحمية ازاء هذا الغطاء الذي لا يغير شيئاً ؟ لماذا يزعم ان الماديين «يعتمدون» على ما للمجرى الديالكتيكي من طابع ثابت لا يمكن نكرانه ؟ ولماذا يقول ، وهو يناضل ضد هذا الغطاء ، بانه يناضل ضد احدى «دعامتي» الاشتراكية العلمية ، في حين ان هذا يناقض الحقيقة بكل جلاء ؟

وطبيعي اني لن ابحث كيف يحلل السيد ميخايلوفسكي امثلة الثلاثيات ، لأن هذا ، واكرر ، لا يمت باية صلـــة الى الماديـــة العلمية ، ولا الى الماركسية الروسية ولكنه من الطريف ان نعرف : اية اسباب دفعت السيد ميخايلوفسكي مع ذلك الى تشويه موقف الماركسيين من الديالكتيك مثل هذا التشويه ؟ كان عنده سببان اولا ، لقد سمع السيد ميخايلوفسكي طنيناً ولكنه لم يدرك اين مصدره ؛ ثانيـــا ، لفّق السيد ميخايلوفسكي تزويراً آخر (او بالاحرى استمده من دوهرينغ) .

Ad 1) * ان السيد ميخايلوفسكي قد اصطدم على الدوام ، اثناء مطالعة المطبوعات الماركسية ، «بالطريقة الديالكتيكية» في العلم الاجتماعي ، «بالتفكير الديالكتيكي» في حقل القضايا الاجتماعية ايضاً (الحقل المقصود الوحيد) ، الخ وقد تصور ، لبساطة نفسه (هذا اذا لم يكن ثمة دافع آخر غير البساطة) ان هذه الطريقة تكمن في حل جميع قضايا علم الاجتماع وفقاً لقوانين الثلاثية الهيغلية . ولو انه اعار الامر انتباهاً اكثر بقليل ، لاقتنع ، من المؤكد ، بسخافة هذا التصور ان ما يسميه ماركس وانجلس الطريقة الديالكتيكية ــ خلافاً للطريقة الميتافيزيقية ــ ليس بالضبط سوى الطريقة العلمية في علم الاجتماع ، التي تعتبر المجتمع جهازاً عضوياً حياً في تطور دائم (لا شيئاً مترابطاً بصورة ميكانيكية ويتيح بالتالي شتى انواع التركيبات الاعتباطية بين مختلف العناصر الاجتماعية) ، جهازاً عضوياً تتطلب دراسته تحليلا موضوعيا لعلاقات الانتاج التي تكو ن تشكيلة اجتماعية معينة ، ودراسة لقوانين عملها وتطورها وسنحاول فيما بعد ان نوضح العلاقة بين الطريقة الديالكتيكية والطريقة الميتافيزيقية (التي تشمل بلا ريب الطريقة الذاتية ايضاً في علم الاجتماع) ، بامثلة مستقاة من محاكمات السيد ميخايلوفسكي ذاته اما الآن فنلاحظ فقط ان من يقرأ تعريف الطريقة الديالكتيكية ووصفها ، سواء أعند انجلس (في جداله ضد دوهرينغ «الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية») ، ام عند ماركس (مختلف الملاحظات على «رأس المال» ، «التنبيه الاخير» في الطبعة الثانية ، «بؤس الفلسفة») ، ــ يرى انهما لا يشيران بشيء الى ثلاثيات هيغل ، وان كل شيء عندهما يقتصر على اعتبار التطور الاجتماعي مجرى

---

* فيما يخص النقطة الاولى . **الناشر** .

طبيعياً تاريخياً لتطور التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية ودليلا على ذلك ، اورد in extenso * وصف الطريقة الديالكتيكية الذي جاء في «فيستنيك ايفروبي» («بشير اوروبا») (٢٣) ، سنة ١٨٧٢ ، العدد ٥ (ملاحظة «وجهة نظر كارل ماركس في انتقاد الاقتصاد السياسي») (٢٤) ، والذي اورده ماركس في «التنبيه الاخير» في الطبعة الثانية من «رأس المال» فقد قال ماركس ان الطريقة التي طبقهـــا في «رأس المال» قد اسيء فهمهـــا «وبالطبع زعق النقاد الالمان بالسفسطة الهيغلية» ولكي يعرض ماركس طريقته بمزيد من الوضوح ، كرر وصفها الوارد في الملاحظة المشار اليها آنفاً وقد جاء فيها ان نقطة واحدة تهم ماركس اكتشاف قانون الظواهر التي يحللها هذا مع العلم ان ما يهمـــه بالدرجة الاولى ، انمـــا هو قانون تغير ، تطور هذه الظواهر ، وانتقالها من شكل الى آخر ، من نظام من العلاقات الاجتماعية الى نظام آخر ولذا فان ماركس لا يهتم الا بشيء واحد الاعتماد على بحث علمي دقيق لتبيـــان ضرورة نظم معينة من العلاقـــات الاجتماعية ، والتثبت ، باقصى دقـــة ممكنـــة ، من الوقائع التي يستخدمها نقطة انطلاق ونقطة ارتكاز ولهذا الغرض يكفيه تماماً ان يبرهن على ضرورة النظام الحالي وفي الوقت نفسه ضرورة نظام جديد آخر ، لا بد له ان ينبثق حتمـــاً من الاول ، ــ سواء آمن الناس بهذه الضرورة ام لم يؤمنوا بها ، سواء ادركوها ام لم يدركوها ، فالامران سيان ان ماركس ينظر الى التطور الاجتماعي بوصفه عملية طبيعية تاريخية تسيرها قوانين لا تتوقف لا على ارادة الناس ولا على وعيهم ولا على نواياهم ، بل بالعكس ، تحدد ارادتهم ووعيهم ونواياهم . (فليعلم ذلك السادة الذاتيون الذين يفرزون

---

* النص الكامل . **الناشر** .

التطور الاجتمـــاعي من التطور الطبيعي التاريخي ، بالضبط لأن الانسان يضع نصب عينيه «اهدافاً» واعية ويسترشد بمثل عليا معينة) فاذا كان عنصر الوعي يضطلع في تاريخ الثقافة بمثل هذا الدور الثانوي ، فمن المفهوم ان لا يتمكن الانتقاد الذي يتناول هذه الثقافة عينها ، من الاعتماد بالاحرى على شكل او نتيجة من اشكال الوعي ونتائجه اي ، بتعبير آخر ، ان نقطة انطلاقه لا يمكن ان تكون الفكرة ، بل الظاهرة الخارجية الموضوعية فقط فعلى النقد ان ينحصر اذن في مقارنة واقع ، في مجابهته ، لا مـع الفكرة ، بل مع واقع آخر ان ما يهمه ، هو ان يخضع الواقعان للدراسة بكل دقة ممكنة ، ان يمثلا ، احدهما بالنسبة للآخر ، مرحلتين مختلفتين من مراحل التطور ؛ ومـــا هو ضروري على الاخص ، انما هو الدراسة بالدقة نفسها لجملة كاملة من الحالات المعروفة ، لتعاقبها ، وللصلة القائمة بين شتى درجات التطور. ان ماركس ينكر بالضبط الفكرة القائلة ان قوانين الحياة الاقتصادية تبقى هي هي، بالنسبة للماضي كما بالنسبة للحاضر. بل بالعكس ، فان لكل مرحلة تاريخية قوانينها الخاصة . ان الحياة الاقتصادية ظاهرة مماثلة لتلك التي يعرضها تاريخ التطور في سائر فروع البيولوجيا ان الاقتصاديين السابقين لم يدركوا طبيعة القوانين الاقتصادية حين شبهوها بقوانين الفيزياء والكيمياء فان التعمق في التحليل يبين ان الاجهزة العضوية الاجتماعية تتمايز فيما بينها بنفس العمق الذي تتمايز به الاجهزة العضوية الحيوانية والنباتية وحين اخذ ماركس على عاتقه ان يبحث ، من وجهة النظر هذه ، التنظيـــم الاقتصادي الرأسمالي ، صاغ ، بكل صرامة العلم ، الهدف الذي يجب ان تقصده كل دراسة دقيقة للحياة الاقتصادية اما شأن هذه الدراسة العلمي ، فهو استيضاح القوانين (التاريخية) الخاصة التي يخضع لها ظهور جهاز عضوي اجتماعي معين ، ووجوده ، وتطوره ، وموته ، والاستعاضة عنه بجهاز آخر ، ارقى .

ذلك هو وصف الطريقة الديالكتيكية الذي استخلصه ماركس من كثرة كثيرة من الملاحظـــات حول «رأس المال» صدرت في الصحف والمجلات ، وترجمه الى الالمانية لأن هذا الوصف للطريقة صحيح تماماً ، كما يقول بنفسه وهنـــا يطرح السؤال التالي هل ورد في هذا الوصف اقل تلميـــح الى الثلاثيات ، الى المجرى الديالكتيكي الثابت الذي لا يمكن نكرانه ، وغير ذلك من الحماقات التي يحاربها السيد ميخايلوفسكي بكثير من الفروسية ؟ بعد هذا الوصف ، اعلن ماركس بوضوح ان طريقتـــه «مضادة مباشرة» لطريقة هيغل فان هيغل يرى ان تطور الفكرة ، وفقاً للقوانين الديالكتيكية الثلاثية ، يحدد تطور الواقع ، وبالطبع ، لا يمكن التحدث عن دور الثلاثيات وعما للمجرى الديالكتيكي من طابـــع ثابت لا يمكن نكرانه ، الا بهذا المعنى اما انا ، فارى العكس ، هكذا قال ماركس «ان المثالي ليس سوى انعكاس للمادي» وهكذا اذن ، ينحصر كل شيء في «فهم وضعي للواقع ولتطوره الضروري» فلا يبقى للثلاثيـــات الا دور الغطاء والقشرة («لقد عمدت الى بعض الغنج والتبرج في تقليد لغة هيغل» ، هكذا يصرّح ماركس في هذا التنبيه الاخير نفسه) ، اللذين لا يمكن ان يهتم بهما غير التافهين الضيقي الافق واننا لنتساءل الآن : كيف يجب علينا ان نحكم على انسان رغب فى انتقاد احدى «دعامتي» الماديـــة العلميـــة ، اي الديالكتيك ، فراح يتحدث عن كل شيء حتى عن الضفادع ونابليون ، ولكنه لم يقل كلمة عن هذا الديالكتيك ، ولا عن مسألة معرفة ما اذا كان تطور المجتمع مجرى طبيعيـــاً تاريخياً حقاً ؟ ما اذا كان المفهوم المادي صحيحـــاً ، وهو الذي يعتبر التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية اجهزة عضوية اجتماعية خاصة ؟ ما اذا كانت طرائق التحليل الموضوعي لهذه التشكيلات صحيحة ؟ ما اذا كانت الافكار الاجتماعية لا تحدد التطور الاجتماعي

حقاً ، بل انما هو الذي يحددها ؟ الخ وهل يمكن الافتراض ان الامر لا يتعلق هنا الا بعدم الفهم ؟

Ad 2)* بعد هذا «النقد» للديالكتيك ، ينسب السيد ميخايلوفسكي الى ماركس طرائق البرهان هذه «بواسطة» الثلاثية الهيغلية ، ويحاربها ، بالطبع ، حرباً مظفرة وقد قال «ان القوانين الملازمة للمجتمع موضوعة ، فيما يخص المستقبل ، بصورة ديالكتيكية تماما» (وهذا هو التحفظ المشار اليه سابقاً) ان رأي ماركس حول حتمية انتزاع الملكية من مغتصبيها ، بموجب قوانين تطور الرأسمالية ، يحمل «طابعاً ديالكتيكياً تماماً» ان «مثال» ماركس «الاعلى» فيما يخص الملكية المشاعية للارض والرأسمال «بمعنى حتميتها ويقينها» ، لا يتعلق الا في طرف السلسلة الهيغلية الثلاثية الحلقات»

ان هذه الحجة **مأخوذة بكليتها** عن دوهرينغ ، وقد استخدمها في كتابه "Kritische Geschichte der Nationalökonomie und des Sozialismus" (3-te Aufl., 1879. S. 486-487)** غير ان السيد ميخايلوفسكي لا يشير بكلمة الى دوهرينغ فلربما توصل بنفسه الى تشويه ماركس بهذه الطريقة ؟

لقد رد انجلس على دوهرينغ رداً ممتازاً ، وبما انه اورد ايضاً انتقاد دوهرينغ ، فاننا نكتفي برد انجلس هذا (٢٥) وسيرى القارئ ان هذا الرد ينطبق بكليته على السيد ميخايلوفسكي ايضاً

«يقول دوهرينغ «ان هذا العرض التاريخي (تكوّن ما يسمى التراكم البدائي للرأسمال في انجلترا) هو ، نسبياً ، من خير

---

* فيما يخص النقطة الثانية . **الناشر** .

** «التاريخ النقدي للاقتصاد الوطني والاشتراكية» (الطبعة الثالثة ، ١٨٧٩ ، ص ص ٤٨٦ – ٤٨٧) . **الناشر** .

ما في كتاب ماركس . ولو انه لم يعتمد على العكاكيز الديالكتيكية ، علاوة على العكاكيز العلمية ، لكان احسن وارقى . ان نفي النفي عند هيغل يلعب هنا ، نظراً لانعدام حجج افضل واوضح ، دور قابلة يخرج المستقبل بمساعدتها من احشاء الماضي ان الغاء الملكية الفردية ، الذي تم منذ القرن السادس عشر حسب الطريقة المشار اليها ، هو النفي الاول وهذا النفي سيتبعه نفي ثان ، موصوف على انه نفي النفي ، وعلى انه ايضاً اعادة «للملكية الفردية» ، ولكن بشكل ارقى ، قائم على الملكية المشتركة للارض وادوات العمل واذا كان السيد ماركس يسمي هذه «الملكية الفردية» الجديدة «بالملكية المشاعية» ايضاً ، فان هنا بالضبط تتجلى الوحدة العليا التي قال بها هيغل ، والتي يقصى (aufgehoben تعبير خاص لهيغل) منها التناقض ، اي ان التناقض ، حسب تلاعب في الكلام عند هيغل ، يبقى بقدر ما يُتفوَّق عليه .

ان انتزاع الملكية من مغتصبيها هو ، اذن ، بمثابة نتيجة اوتوماتيكية للواقع التاريخي بظروفه المادية الخارجية ومن قليل الاحتمال ان يقتنع ولو انسان واحد سليم العقل ، استناداً الى الشعوذات الهيغلية كنفي النفي ، بضرورة الملكية المشاعية للارض والرأسمال ناهيك عن ان هذه الدمامة الغامضة في آراء ماركس لن تدهش اولئك الذين يعرفون ما يمكن صنعه من مثل هذه المادة العلمية التي هي ديالكتيك هيغل ، او بالاحرى يعرفون ما يجب ان ينتج عنه من حماقات واضاليل واقول صراحة ، لغير المطلعين على هذه الامور ، ان النفي الاول يضطلع عند هيغل بدور الخطيئة الاصلية المأخوذة عن كتاب التعليم المسيحي ، والثاني بدور الوحدة العليا التي تقود الى الخلاص وبديهي انه لا يمكن بناء منطق الوقائع على شعوذة المشابهة هذه المستقاة من مجال الدين ... ان السيد ماركس يقتنع بفكرته

الضبابية للملكية الفردية والمشاعية في آن واحد ، ويدع لاتباعه امر الاهتمام بحل هذا اللغز الديالكتيكي العميق الفكرة بانفسهم»
هكذا تكلم السيد دوهرينغ

ويخلص انجلس قائلا وهكذا ، كما يزعم ، لا يستطيع ماركس ان يثبت ضرورة الثورة الاجتماعية ، وضرورة اقرار الملكية المشاعية للارض ووسائل الانتاج التي ابدعها العمل ، دون اللجوء الى نفي النفي الذي قال به هيغل ؛ وهو ، اذ يبني نظريته الاشتراكية على شعوذات مشابهة مستقاة من الدين ، يتوصل الى النتيجة التالية وهي ان ملكية فردية ومشاعية في آن واحد ستسود في المجتمع المقبل بوصفها وحدة هيغلية عليا للتناقض الذي اقصي *

---

* ان يكون هذا التعريف لمفاهيم دوهرينغ يوافق السيد ميخايلوفسكي كل الموافقة ، فهذا ما يثبته ايضا المقطع التالي من مقاله «كارل ماركس امام محكمة السيد جوكوفسكي» فرداً على السيد جوكوفسكي الذي كان يرى في ماركس مدافعا عن الملكية الخاصة ، يستشهد السيد ميخايلوفسكي بمخطط ماركس هذا ويفسره على النحو التالي «ان ماركس قد ادرج في مخططه ضربي شعوذة معروفين من ضروب شعوذة الديالكتيك الهيغلي ١ ـ المخطط مبني وفقا لقانون الثلاثية الهيغلية ؛ ٢ ـ التاليف قائم على تماثل الضدين الملكية الفردية والملكية المشاعية وهكذا فان كلمة «فردي» ترتدي هنا المعنى الخاص ، الاصطلاحي الصرف ، لعنصر من عناصر المجرى الديالكتيكي ، ولا يمكن اطلاقا بناء اي شيء عليها» هذا القول انما تفضل به انسان مفعم باطيب النوايا ، انسان دافع امام الجمهور الروسي عن «الدموي المزاج» ماركس ضد البرجوازي السيد جوكوفسكي وباطيب النوايا هذه يعلق على اقوال ماركس بمعنى ان ماركس بنى مفهومه عن المجرى على «ضروب من الشعوذة» ! من هنا يستطيع السيد ميخايلوفسكي ان يستخلص عبرة اخلاقية تفيده ، ونعني بها ان النوايا الطيبة لا تكفي وحدها ، ايا كان الامر الذي يباشره الانسان .

لندع ، موقتاً ، جانباً نفي النفي ولنر الى هذه «الملكية الفردية والمشاعية في آن واحد» ان السيد دوهرينغ يسميها «بالضباب» وهو على حق في ذلك ، مهما بدا ذلك مدهشاً ولكن المصيبة ان الذي استغرق في هذا «الضباب» ليس ماركس ، بل مرة اخرى السيد دوهرينغ نفسه وهو اذ يصلح ماركس وفقاً لهيغل ، ينسب اليه ضرباً من وحدة عليا للملكية لم يقل عنه ماركس اية كلمة .

ونقرأ عند ماركس «هذا نفي النفي وهو يخلق الملكية الفردية من جديد ولكن على اساس مكتسبات العهد الرأسمالي ـ تعاون الشغيلة الاحرار وملكيتهم المشاعية للارض ولوسائل الانتاج التي ابدعوها انفسهم ان تحول ملكية الفرد الخاصة ، القائمة على العمل الشخصي والمجزأة ، الى ملكية رأسمالية ، هو بالطبع حركة اطول واصعب واحد بكثير من تحول الملكية الخاصة الرأسمالية التي ترتكز بالفعل على عملية الانتاج الاجتماعي الى ملكية اجتماعية» هذا كل شيء فان الاوضاع الناشئة عن انتزاع الملكية من مغتصبيها موصوفة هنا على انها اعادة للملكية الفردية **على اساس** الملكية المشاعية للارض ووسائل الانتاج التي ابدعها الشغيلة انفسهم وهذا يعني ، لكل من يفهم الالمانية (والروسية ايضاً ، ايها السيد ميخايلوفسكي ، لأن الترجمة امينة تماما) ، ان الملكية المشاعية تشمل الارض وسائر وسائل الانتاج ، بينما تشمل الملكية الفردية سائر المنتجات ، اي حاجات الاستهلاك ولكي يتضح الامر حتى للاطفال في السادسة من العمر ، يفترض ماركس ، في الصفحة ٥٦ (في الطبعة الروسية الصفحة ٣٠) (٢٦) ، «جمعية من اناس احرار يشتغلون بوسائل انتاج مشتركة ويبذلون بشكل منهاجي قوى عملهم الفردية بوصفها قوة عمل اجتماعية واحدة» ، اي بتعبير آخر ، مشاعة منظمة على اساس اشتراكي ،

ويقول «ان مجمل نتاج العمل انما هو نتاج اجتماعي وقسم من هذا النتاج يؤول من جديد الى وسائل انتاج . **ويظل اجتماعياً** . ولكن القسم الآخر يستهلكه اعضاء الجمعية باعتباره وسيلة للمعيشة **ولذا يجب توزيعه بينهم**» وهذا ما يجب ان يكون واضحاً حتى للسيد دوهرينغ

ان الملكية الفردية والمشاعية في آن واحد ، هذه الدمامة الغامضة ، هذه الخراقة التي تنجم عن ديالكتيك هيغل ، هذه الفكرة الضبابية ، هذا اللغز الديالكتيكي العميق ، الذي يترك ماركس لاتباعه امر حله ، انما هي ايضاً من ابداع مخيلة السيد دوهرينغ

ويستطرد انجلس قائلا اي دور يلعبه اذن نفي النفي عند ماركس ؟ ان ماركس يوجز في الصفحة ٧٩١ وما يليها (في الطبعة الروسية ص ٦٤٨ وما يليها) النتائج النهائية للابحاث الاقتصادية والتاريخية الواردة في الصفحات الخمسين (في الطبعة الروسية ـ الخمس والثلاثين) السابقة حول ما يسمى التراكم البدائي للرأسمال . قبل العهد الرأسمالي ، كان الانتاج الصغير ، في انجلترا على الاقل ، يرتكز على ملكية الشغيل لوسائل انتاجه ملكية خاصة ان ما يسمى التراكم البدائي انما يكمن ، هنا ، في انتزاع ملكية هؤلاء المنتجين المباشرين ، اي في الغاء الملكية الخاصة المرتكزة على العمل الشخصي وقد أمكن هذا الالغاء لأن الانتاج الصغير المشار اليه لا يطابق الا انتاجاً ومجتمعاً تحصرهما اطارات ضيقة ، بدائية ، ولأن هذا الانتاج الصغير ، عند درجة معينة من التطور ، يخلق بنفسه الشروط المادية لالغائه ان هذا الالغاء ، تحول ادوات الانتاج الفردية والمبعثرة الى وسائل انتاج ممركزة اجتماعياً ، يشكل التاريخ البدائي للرأسمال فما ان تحول الشغيلة الى بروليتاريين ، ووسائل انتاجهم الى رأسمال ، وما ان وقف اسلوب الانتاج الرأسمالي على قدميه ، حتى ارتدت عملية

اطراد جعل العمل اجتماعياً ، واطراد تحويل الارض وسائر وسائل الانتاج (الى رأسمال) ، وبالتالي اطراد انتزاع ملكيـــة الملاكين الفرديين ، شكلا جديداً «اما من يتعلق الامر الآن بانتـــزاع ملكيتهم ، فلم يعد المقصود العامل الذي يستثمر اقتصاده الشخصي ، بل الرأسمالي الذي يستثمر العديد من العمال ان انتزاع الملكية هذا ، يتم بفعل القوانين الملازمة للانتاج الرأسمالي نفســه ، بفعل تمركز الرساميل فان رأسمالياً يقضي على الكثيرين من امثاله والى جانب هذا التمركز ، اي انتزاع بعض الرأسماليين ملكية عدد كبير من امثالهم ، يتطور الشكل التعاوني لسير العمل وفق مقياس يتسع على الدوام ، كما يتطور تطبيق العلم على التكنيك تطبيقـاً واعياً ، واستثمار الارض استثماراً منهاجياً من قبل المجتمـــع وتحويل وسائل العمل الى وسائل لا يمكن استعمالها الا استعمالا مشتركا ، وتوفير جميع وسائل الانتاج باستعمالها كوسائل انتاج مشتركة لعمل اجتماعي منسق وبقدر ما يتناقص باستمرار عدد دهاقنة الرأسمال الذين يغتصبون ويحتكرون جميع منافع عملية التحول هذه ، بقدر ما يشتد ويستشري البؤس والظلم والاستعباد والانحطاط والاستثمار ، وبقدر ما يزداد تمرد الطبقة العاملة التي تتنامى على الدوام والتي تتثقف وتتحد وتنتظم بفعل آلية عملية الانتاج الرأسمالية نفسها وهكذا يصبح الرأسمال العقبة امـــام اسلوب الانتاج الذي ازدهر معه وفي كنفه ان تمركز وسائل الانتاج ، وجعل العمل اجتماعياً يصلان الى حد انهما لا يعودان يتطابقان مع اطارهما الرأسمالي ، فينفجر هذا الاطار ان الساعة الاخيرة للملكية الخاصة الرأسمالية تدق ان مغتصبي الملكيـــة تنزع منهم ملكيتهم»

والآن ، اسال القارئ اين هي اذن الزخارف والبهـــارج الديالكتيكية الدعية ، اين تشوش الافكار الذي يقضي على كـــل

الفوارق ، اين العجائب الديالكتيكية المصنوعة من اجل المؤمنين والشعوذات المطابقة للمذهب الهيغلي عن اللوغوس * ، التي لولاها ، على حد قول دوهرينغ ، لما استطاع ماركس ان يصل ببحثه الى النهاية ؟ ان ماركس يبرهن معتمداً على التاريخ ، وهو يوجز هنا ما يلي : كما ان الانتاج الصغير ولد فيما مضى ، بحكم تطوره بالذات ، شروط هلاكه ، كذلك ولد الانتاج الرأسمالي اليوم الشروط المادية التي لا بدّ ان تؤدي الى هلاكه هذا مجرى تاريخي ، واذا كان في الوقت نفسه مجرى ديالكتيكياً ، فليس الذنب ذنب ماركس ، مهما بدا هذا للسيد دوهرينغ محتوماً

وبعد ان انهى ماركس برهنته التاريخية الاقتصادية ، بعد هذا فقط ، تابع يقول : «ان الاسلوب الرأسمالي للانتاج والتملك ، وبالتالي الملكية الخاصة الرأسمالية ايضاً ، هو النفي الاول للملكية الفردية القائمة على العمل الشخصي ان نفي الانتاج الرأسمالي انما يولده الانتاج الرأسمالي نفسه بشكل المجرى الطبيعي التاريخي الحتمي . وهذا نفي النفي» ، الخ (كما ورد اعلاه)

وهكذا ، حين اسمى ماركس هذا المجرى نفي النفي ، لم يخطر في باله ان يرى في ذلك ، الدليل على ضرورته التاريخية بل بالعكس فحين برهن ، استناداً الى التاريخ ، ان هذا المجرى قد حدث بالفعل جزئياً ، ولا بد ان يحدث جزئياً في المستقبل ، حينذاك فقط وصفه بانه مجرى يتم مع ذلك وفق قانون ديالكتيكي معين وهذا كل شيء وهكذا اذن ، ينسب السيد دوهرينغ الى ماركس من جديد ما لم يقله ماركس قط ، وذلك حين يزعم ان نفي النفي يلعب هنا دور قابلة يخرج المستقبل بمساعدتها من

---

* لوغوس logos ـ كلمة يونانية تعني العلم ، المعرفة وقد اطلق هيغل اسم «لوغوس» في فلسفته على المفهوم المطلق . **الناشر** .

احشاء الماضي ، او ان ماركس يطالب بان يقتنع احد ، ايماناً بقانون نفي النفي ، بضرورة الامتلاك المشاعي للارض والرأسمال» (ص ١٢٥)

ان القارئ يرى ان هذا الرد الرائع من انجلس على دوهرينغ ينطبق ايضاً بكليته على السيد ميخايلوفسكي الذي يزعم هو ايضاً ، ان المستقبل عند ماركس لا يتعلق الا في طرف السلسلة الهيغلية وان الاقتناع بحتميته لا يمكن ان يقوم الا على الايمان *

ان كل الفرق بين دوهرينغ والسيد ميخايلوفسكي ينحصر في نقطتين قليلتي الشان هما اولا ، ان دوهرينغ ، رغم انه لا يستطيع ذكر ماركس دون ان يتدفق الزبد والرغوة من فمه ، قد ارتأى مع ذلك من الضروري ، في الفقرة التالية من «تاريخه» ، ان يذكّر بان ماركس يرفض قطعا في التنبيه الاخير (٢٧) اتهامه بالهيغلية اما السيد ميخايلوفسكي ، فانه لا ينبس بكلمة عن العرض (المذكور اعلاه) الواضح الجلي تماماً ، الذي يقدمه ماركس عما يقصده بالطريقة الديالكتيكية

ثانياً ان الشيء الطريف الثاني عند السيد ميخايلوفسكي ، انه اولى استعمال صيغ الازمنة كل انتباهه . لماذا يستعمل ماركس صيغة الحاضر في معرض كلامه عن المستقبل ؟ ـ هكذا يسأل

---

* لا يبدو من الكلام الزائد ان نلاحظ بهذا الصدد ان كل هذا التفسير انما يعطيه انجلس في الفصل الذي يتحدث فيه عن الحبة ، ومذهب روسو ، وامثلة اخرى عن العملية الديالكتيكية ويبدو ان مجرد مقارنة هذه الامثلة مع التصريحات الواضحة والقاطعة التي ادلى بها انجلس (وماركس الذي قرئت له مسبقاً مخطوطة هذا المؤلف) والتي تفيد بانه لا يمكن التحدث عن **اثبات** اي شيء بالثلاثيات ، او اعطاء اي دور في تصور العملية الفعلية «للعناصر الاصطلاحية» في الثلاثيات ، ـ ان مجرد هذه المقارنة يكفي تماماً لفهم خراقة اتهام الماركسية بالديالكتيك الهيغلي .

فيلسوفنا بلهجة الظفر بوسعك ان تستوضح ذلك في اي كتاب للقواعد ، يا حضرة الناقد المحترم تماماً فسيقال لك ان صيغة الحاضر تستعمل محل صيغة المضارع (المستقبل) حين يبدو هذا المستقبل محتماً واكيداً ولكن لـم هذا ، لماذا هو اكيد ؟ـ يتساءل السيد ميخايلوفسكي بقلق ، متظاهراً باضطراب قوي من شانه ان يبرر حتى تزويراً .ـوعن هذا ايضاً ، يعطي ماركس جواباً دقيقاً جداً ، قد يعتبره بعضهم غير كاف او غير صحيح ، ولكنه يجب على هذا البعض آنذاك ان يبين في **اي شيء** بالضبط هو غير صحيح **ولماذا بالضبط** ، بدلا من التكرم بحماقات عـن الهيغلية .

لقد مر زمن كان السيد ميخايلوفسكي لا يعرف فيه فحوى هذا الجواب وحسب ، بل يعلمه ايضاً للآخرين فقد كتب في عام ١٨٧٧ يقول ان في مستطاع السيد جوكوفسكي ان يعتبر ، على حق ، صيغة ماركس بصدد المستقبل امراً مبهماً ، ولكنـه «لا يحق له اخلاقياً» ان يتهرب من مسالة جعل العمل اجتماعياً ، «التي يعلق عليها ماركس اهمية بالغة» طبعاً ! في عام ١٨٧٧ ، لم يكن يحق لجوكوفسكي اخلاقياً ان يتهرب من المسالة ، ولكنه يحـق ذلك للسيـد ميخايلوفسكي في عام ١٨٩٤ ربمـا ،ـ quod licet Jovi, non licet bovi * ؟ !

واني لا استطيع ان امنع نفسي عن التذكير هنا بمثال طريف عن مفهوم هذه المسالة ، مسالة جعل العمل اجتماعياً ، اعربت عنه فيما مضى مجلة «اوتيتشيستفينييه زابيسكي» (٢٨) ففي العدد ٧ من سنة ١٨٨٣ ، نشرت «رسالة الى هيئة التحرير» من المدعو السيد بوستوروني ، وقد اعتبر فيها ، مثل السيد ميخايلوفسكي ،

---

* المسموح لجوبيتر غير مسموح للثور . **الناشر** .

«صيغة» ماركس بصدد المستقبل امراً مبهماً وهذا السيد يناظر على النحو التالي «ان الشكل الاجتماعي للعمل في ظل سيطـــرة الرأسمالية ينحصر ، من حيث الجوهر ، فيما يلي : بضع مئات او آلاف من العمال ، يشحذون ، ويطرقون ، ويخرطون ، ويحكمون ، ويحملون ، ويسحبون ، ويقومون بعمليات اخرى كثيرة تحت سقف واحد اما الطابع العام لهذا النظام فيعرب عنه بروعـــة المثل السائر القائل «كل لنفسه والله للجميع» فما شان الشكل الاجتماعي للعمل هنا ؟»

من الواضح فوراً ان هذا الرجل قد فهم الموضوع ! «الشكل الاجتماعي للعمل» «ينحصر» في «العمل تحت سقف واحد» ! ! وبعد افكار بمثل هذه السخافة ، ومنشورة مع ذلك في مجلة من خيرة المجلات الروسية ، يراد اقناعنا بان القسم النظري مـــن «رأس المال» امر يعترف بـــــه العلم كلياً اجل ، ان «العلم المعترف به كلياً» ، لعجزه عن التقدم باعتراض جدي نوعاً على «رأس المال» ، راح يبدي له آيات التكريم والتبجيل ، ولكنه ظل في الوقت نفسه يبدي جهلا فاضحاً ويكرر ترهات الاقتصـــاد المدرسي العتيقة لنتوقف قليلا عند هذه النقطة لكي نبين للسيد ميخايلوفسكي جوهر القضية الذي تركه جانباً تماماً ، كما هـــي عادته .

ان جعل العمل اجتماعياً بسبب من الانتاج الرأسمالي ، لا يعني ابداً ان اناساً يشتغلون تحت سقف واحد (فليس ذلك سوى جزء صغير من العملية) ، بل يعني ان تمركز الرساميل انما يصحبه تخصص في العمل الاجتماعي ، وانخفاض لعدد الرأسماليين في كل صناعة معينة ، وزيادة في عدد الصناعات المتمايزة ؛ـ وان كثرة من العمليات الانتاجية المبعثرة تندمج في عملية انتاجية اجتماعية واحدة . فحين كان صغـــار المنتجين ، مثلا ، في عهد الحياكـــة